

سلسلة: إتحاف الحاضر والبادي بتفريغ أشرطة العلامة الشيخ محمد بن هادي، قسم الخطب (٨)

تفريغ خطبة بعنوان:

«مكانة العلماء في الإسلام والمصيبة في فقدهم»

لفضيلة الشيخ العلامة

د. محمد بن هادي المدخلي - حفظه الله -

المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقاً

ألقاها فضيلته في جامع مكتبة العلوم الشرعية بصامطة، ١٣/٥/١٤٣٥ هـ

اعتناءً

أبي قصي المدني

- عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين أجمعين -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة بعنوان:

«مكانة العلماء في الإسلام والمصيبة في فقدهم»

لفضيلة الشيخ محمد بن هادي المدخلي - حفظه الله - (١)

«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ

مُحدثَةٍ بدعة، وكلُّ بدعةٍ ضلالة، وكلُّ ضلالةٍ في النار.

أما بعد:

فيا أيُّها المسلمون: إنَّ الله ﷻ اختصَّ طائفةً من عباده فضَّلَهُمْ على خلقه بما خصَّهم به من

مزيد الفضل والإنعام؛ رفعَهُم درجاتٍ، وكرَّمَهُم ﷻ، فأعلى منزلتَهُمْ، وقصَّرَ خَشِيَّتَهُ الحَقِيقِيَّةَ

عليهِمْ، فضَّلَهُمْ على الناس؛ لأنهم المصابيح، يدُّون الناس في سيرهم إلى الله والدار الآخرة.

(١) ألفاها فضيلته في جامع مكتبة العلوم الشرعية بصامطة، ١٣/٥/١٤٣٥هـ.

إِنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ الكَرِيمَةَ وَالنَّبِيلَةَ العَظِيمَةَ هُمُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَصْفِيَاؤُهُ، وَعِبَادُهُ، وَالْأَتْقِيَاءُ لَهُ حَقِيقَةٌ؛ إِنَّهُمْ العُلَمَاءُ يَا عِبَادَ اللَّهِ، العُلَمَاءُ فَضَّلَهُمُ اللَّهُ عَلَى غَيْرِهِمْ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

رَفَعَهُمْ مَنْزِلَةً تَسْمُو عَلَى كُلِّ الْمَنَازِلِ؛ أَلَا وَهِيَ قَرْنُهُ لِشَهَادَتِهِمْ بِشَهَادَتِهِ، وَشَهَادَةِ مَلَائِكَتِهِ عَلَى أَعْظَمِ مَشْهُودٍ عَلَيْهِ أَلَا وَهُوَ: وَحْدَانِيَّتُهُ وَتَوْحِيدُهُ ﷻ، فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

رَفَعَهُمْ دَرَجَاتٍ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].
فَالرَّفْعَةُ حَصَلَتْ لِلطَّائِفَتَيْنِ؛ لَكِنِ الدَّرَجَاتُ العَلِيَّةُ إِنَّمَا حَصَلَتْ لَوَرَثَةِ هَذَا النَّبِيِّ ﷺ،
رَفَعَهُمُ اللَّهُ الدَّرَجَاتِ العُلَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].
فَالدَّرَجَاتُ الكَثِيرَةُ الْمُتَبَاعِدَةُ وَالمُتَفَاوِتَةُ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَخْشَاهُمْ لَهُ.

قَالَ - جَلَّ وَعَزَّ -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].
الخَشْيَةُ الحَقِيقِيَّةُ وَالخَشْيَةُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ إِنَّمَا هِيَ حَاصِلَةٌ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الكَرِيمَةِ وَالنَّبِيلَةَ العَظِيمَةَ؛ لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - حَقَّ مَعْرِفَتِهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَعَرَفُوا مَا يَجِبُ لَهُ ﷻ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ وَنَعَوَاتِ الجَلَالِ، فَلَمَّا تَعَرَفُوا عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَعَظِيمِ أَعْمَالِهِ عَرَفُوهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ، فَعَبَدُوهُ عَلَى الوَجْهِ الصَّحِيحِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَدِ انْتَهَى إِلَيْهِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَخْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

الجواب: لا، كيف يستوي ورثة النبي ﷺ الذين عرفوا أحواله الشريفة، ومواقفه المنيفة، وأحكامه التي جاء بها في شرعه المطهر عن الله -تبارك وتعالى-؛ كيف يستوي هؤلاء والجاهلون؟! لا يستون أبداً.

هؤلاء هم ورثة النبي ﷺ، وهم ورثة الأنبياء في كل زمانٍ وأمةٍ من الأمم. فلما كانوا ورثة الأنبياء كانوا أكثر الناس شَبَهًا بالأنبياء، بُعدًا عن الدنيا وتقللاً منها، وزهدًا فيها، ومجافاةً لها، لا يُزاحمون عليها؛ لأنهم عرفوها أنها دنيّة؛ ونبئهم ﷺ يقول: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ اسْتَضَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (١).

فلما عرفوا قيمتها كانوا هم الفطناء:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّمَا لَيْسَتْ لِحَيِّ سَكْنَا
جَعَلُوهَا جُتَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنًا (٢)

عرفوا هذه الدنيا على حقيقتها فلم يركنوا إليها، فأثروا التقلُّل منها، وقلَّة الرصيد فيها ليس بدمٍ ولا عيبٍ ولا عارٍ، فقد خرج منها رسول الله ﷺ وهو إمامهم وقائدهم ولم يشبع منها من خبز شعير ثلاث ليالٍ (٣) -صلوات الله وسلامه عليه-.

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه- الرسالة» برقم (٢٣٧٧)، وابن ماجه في «سننه- الرسالة» برقم (٤١٠٩)، وصححه الألباني في «الصحيحه» برقم (٤٣٨).

(٢) هذه الأبيات تُنسب للإمام الشافعي رحمته، ينظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- ت إحسان» (٨٦/٢).

(٣) أخرج البخاري في «صحيحه» برقم (٥٤١٤): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: (أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَا، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنَ الْخُبْزِ الشَّعِيرِ، وَبِرَقْم (٥٤١٦) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: (مَا شَبِعَ أَلَّ مُحَمَّدٍ رضي الله عنه مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ).

لكنهم هم وراث النبي ﷺ حقيقة، ف: «إن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافٍ»^(١)، فما أعظمه من إرثٍ حصَّله، وما أتفه الدنيا من إرثٍ تركوها؛ لأنها ليست عند الله تسوى جناح بعوضة، فذهبوا إلى الحظِّ الأوفر والنصيب الأكبر؛ ألا وهو الذي يرفعهم الله به في الدنيا والآخرة؛ ألا وهو: العلم، فكانوا وراث رسول الله ﷺ، فرفعهم الله -جل وعلا- بذلك.

قال -عليه الصلاة والسلام- في هذا الحديث الذي سمعتم طرفه الأخير وهو حديث أبي الدرداء المخرَّج في سنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد في «مسنده»، وغيرهم؛ قال -عليه الصلاة والسلام-: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ» هذا فضل العالم على العابد الصالح المطيع القائم القانت لله في جميع أوقاته، فضلاً عن الفساق والجهال الذين لا يصح لهم أن يُقروا بهؤلاء الأخيار الأبرار، «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»، تجملوا في أنفسهم، كمَّلوا جمال أنفسهم باستقامتهم على أمر ربهم، فجمَّلوا في أنفسهم، وتزيَّنوا فصاروا كبدر التَّمَّ لَيْلَ التَّمَّ لَيْلَ السُّتِّ بعد ثمانٍ؛ ليلة خمس عشرة اكتمل جماله، وبهاؤه، وحسنه، وعمَّ نورُه، وقويَّ صوُّه، فتسلَّط على الأرض، فأنارَ للسايرين طريقهم في الأسفار.

هكذا العلماء تجمَّلوا في أنفسهم بالعلم الموروث، تجمَّلوا بالعلم الموروث فظهر جماله عليهم سكينه، وخشيه، وهيبه، وجلالاً، ووقاراً، ترى الناس يُوقروهم لا لِدُنْيَاهُمْ، لكن مهابةً ألقاها الله لهم وقذفها في قلوب العباد.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده- الرسالة» برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود في «سننه- الرسالة» برقم (٣٦٤١)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٢٣)، وغيرهم، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

قيل في مَالِكٍ:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةَ
عِزُّ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى
وَالْحَاضِرُونَ نَوَاصِ الْأَذْقَانِ
فَهِيَ الْوَقَارُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ (١)

هذا هو الملك، لا ما يساق له الناس بالعصا، تجملوا في أنفسهم، فأناروا وجوههم بالعبادة، وظهرت عليهم علامات الخشية والخوف من الله، والسكينة عليهم تغشاهم، كيف لا تغشاهم والملائكة تحفُّهم في مجالسهم، والسكينة تنزل عليهم في مجالسهم التي يُبينون فيها أحكام الله، ارتفعوا في مكانتهم ارتفاعَ البدر ليلة اكتماله في عظيم جماله، ارتفعوا عن الناس فلم يُدنسوا أنفسهم.

ينال الناس خيرهم، ولا يناههم دنسُ الناس، مُترفعون عنهم، أصفياء أنقياء لم تُدنسهم الدنيا بدنسها، هؤلاء هم العلماء، هم ورثة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .
ما أعظم أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، هؤلاء العلماء هم في الحقيقة أمانة هذه الأمة الذين يحفظُ الله ﷻ الأمة بوجودهم.

أسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وألا يضلنا بعد إذا هدانا، إنه جوادٌ كريمٌ.
أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مبرأة من الشرك والشك، أرجو بها النجاة يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

(١) ينظر: «عيون الأخبار» (١/ ٤١١) لابن قتيبة، و«حياة الحيوان الكبرى - الكتب العلمية» (٢/ ٤٤٤) للدميري.

وَأُصَلِّيَ وَأُسَلِّمَ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ الْقَائِلِ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(١)، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.
أَمَّا بَعْدُ:

فِيَا عِبَادَ اللَّهِ: «إِنَّ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ أَنْ يَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُرْفَعَ الْعِلْمُ»^(٢)، وَفِي لَفْظٍ: «أَنْ يَنْزَلَ الْجَهْلُ وَيُرْفَعَ الْعِلْمُ»^(٣)، وَفِي لَفْظٍ: «أَنْ يَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُقْبَضَ الْعِلْمُ»^(٤).
أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّمَا يَنْزَلُ الْجَهْلُ وَيَثْبُتُ الْجَهْلُ وَيَعَمُّ الْجَهْلُ وَيَنْتَشِرُ الْجَهْلُ؛ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى لِيَكُونَ الْبَلَدُ بِأَسْرِهِ لَا يُوجَدُ فِيهِ عَالِمٌ وَاحِدٌ يُسْتَفْتَى فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، هَذَا هُوَ وَاللَّهُ الْمُصَابُ الْجَلَلُ، يَثْبُتُ الْجَهْلُ، وَيَرْتَفِعُ الْعِلْمُ؛ يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَنْزَلُ الْجَهْلُ؛ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، فَسَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّذِي سَمِعْتُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٥) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ هَذَا الْعِلْمَ أَنْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا» وَفِي الْلَفْظِ الْآخَرَ: «حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا»، وَفِي لَفْظٍ^(٦): «رُؤُوسَاءُ جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٥٢٣١) بلفظ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْتُرُ الْجَهْلُ...».

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٧٠٦٣) بلفظ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا، يَنْزَلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ...».

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٨٠) بلفظ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ...»، و برقم (٨٥) بلفظ: «يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ، وَالْفِتْنُ...»، وأخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٦٧١) بلفظ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ...».

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (١٠٠)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٢٦٧٣).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٦٥١١)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» برقم (٤٥٥٢).

فضلالُ الناسِ إنما يأتي بسبب الجهل، والجهلُ إنما ينزل بسبب ذهاب العلماء، فإنَّ موت العلماء ثلثةٌ في الإسلام عظيمةٌ لا تُسدُّ، فكلمًا مات عالمٌ قلَّ أن يُسدَّ مكانه في الأمة.

أمة الإسلام: ورد عن عبد الله بن عباسٍ -رضي الله عنهما- في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

قال: (نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ مِنْهَا) أو كما قال -رضي الله عنه- (١).

وقد جاء في حديث أبي أمامة عند الإمام أحمد رحمته في «مسنده» (٢) أن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «ليرتفعنَّ العلم ويثبت الجهل»، فقام أعرابيُّ فقال: كيف ذلك يا رسول الله ونحن نقرؤه من مصاحفنا وقد تعلَّمناه وعلمناه نساءنا وذرائعنا وخدمنا؟ فنظر إليه النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وقد احمرَّ وجهه مُغضبًا ثمَّ قال: «ثكلتك أمُّك؛ إنَّ هذه بنو إسرائيل مصاحفهم بينهم لم يعلِّقوا منها بسطرًا»، ثمَّ قال له: (إنما ذلك بقبض العلماء، إنما ذلك بقبض العلماء، إنما ذلك بقبض العلماء) أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-.

والحديثُ في سنده مقال؛ لكن قال الحافظ ابن حجر رحمته: (وللجملة الأخيرة منه وهي قوله: «إِنَّ الْعِلْمَ يُرْفَعُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ» شواهد صحيحة كثيرة) (٣) ومنها الذي سمعتم.

ألا وإنَّ مُصابنا عظيمٌ في هذه الآونة بموت إمام أهل السُّنَّة والجماعة في جنوب البلاد السعودية، حامل لواء السُّنَّة والدعوة والعلم والفقهِ فيها: شيخنا العلامة الفقيه المحدث المُفسِّرُ الأصوليُّ الشيخ: زيد بن مُحَمَّد بن هادي المدخليّ -عليه من الله الرحمة والرضوان-، صار إلى ربِّه تبارك وتعالى، اختاره اللهُ إلى جوارِهِ، وإنَّا لنرجو له أن يكون ما عند الله خيرٌ له،

(١) ينظر: «تفسير الطبري - ط هجر» (١٣/٥٧٩)، «تفسير ابن كثير - ت سلامة» (٤/٤٧٢).

(٢) برقم (٢٢٢٩٠) بنحوه.

(٣) «فتح الباري» (١٣/٢٨٦).

وقد تركَ خيرًا عظيمًا، مُصَابِنًا فِيهِ جَلٌّ، وَالْحَطْبُ بِفَقْدِهِ عَظِيمٌ، وَلَكِن وَاللَّهِ لَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، إِنَّ الْقَلْبَ لِيَحْزَنُ، وَإِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ: إِنَّا لَفِرَاقِ شَيْخِنَا لِمَحْزُونُونَ.

نَسْأَلُ اللَّهَ - جَلٌّ وَعَلَا - بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يَتَغَمَّدَهُ بِوَسْعِ رَحْمَتِهِ، وَأَنْ يَرْفَعَ فِي جَنَاتِهِ دَرَجَتَهُ بِمَا أَسَدَى لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

نَسْأَلُ اللَّهَ - جَلٌّ وَعَزٌّ - أَلَّا يَجْرِمَنَا وَإِيَّاكُمْ وَالْمُسْلِمِينَ أَجْرَهُ، وَلَا يَفْتِنَّا بَعْدَهُ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ دِينَ اللَّهَ بَاقٍ، فَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ الرَّحِيلَ إِلَى جَوَارِهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فَأَقَامَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الصِّدِّيقَ ﷺ، ثُمَّ نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مَا نَزَلَ، فَأَقَامَ اللَّهُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عُمَرَ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ، فَأَقَامَ لَهُمْ عَلِيًّا فِي فِتْنَةِ الْخَوَارِجِ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ، فَجَمَعَ اللَّهُ الْأُمَّةَ بِالْحَسَنِ فَأَلْفَ بِهِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فَأَصْبَحَ بِذَلِكَ كَمَا قَالَ جَدُّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (١).

ثُمَّ نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مَا نَزَلَ، فَهَيَّأَ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ الْإِمَامَ الْحَبْرَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - فَأَعَزَّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَأَقَامَ بِهِ السُّنَّةَ، وَكَشَفَ بِهِ الْمِحْنَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدْعَةَ، ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ مَا شَاءَ وَنَزَلَ بِالْإِسْلَامِ مَا نَزَلَ، فَأَقَامَ اللَّهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ رحمته، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، ثُمَّ نَزَلَ بِالْإِسْلَامِ وَالْأُمَّةِ مَا نَزَلَ، فَأَقَامَ اللَّهُ - جَلٌّ وَعَزٌّ - بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَرْضِ نَجْدٍ عَالِمًا مُجْتَهِدًا: الْإِمَامَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، فَأَقَامَ لِلدِّينِ مَا كَانَ قَدْ اعْوَجَّ مِنْهُ، وَأَعَادَ لَهُ صَفَاءَهُ، وَنَظَرَتَهُ، وَبَهَجَتَهُ، وَلَمْ نَزَلْ نَتَفِيًا ظِلَالًا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٢٧٠٤).

دعوته إلى هذا اليوم التي هي امتداد دعوة رسول الله ﷺ الصافية البيضاء النقية التي قال فيها: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ» (١).

قام بهذه الدعوة وناصره مَنْ شاء الله له الفضل والأجر والخير من آل سعود - وفقهم الله وجزاهم عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء -.

وما الشيخ زيد رحمته إلا امتداد لهذه الدعوة المباركة، وثمره من ثمراتها اليانعة، ولن تكف - إن شاء الله - هذه الثمرة؛ فإنَّ البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، وهذا البلد قامت فيه دعوة طيبة مباركة صافية نقيّة، لم تتلخّ بأوْضار البدع والحزبيّات التّنة المقيّنة التي يشاء أهلها بزخرفتهم لها حَرَفَ الناس عن طريق رسول الله ﷺ، طريق العلم والعلماء.

ثم صلُّوا وسلِّموا - أيها المسلمون - على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه، فقال جلّ من قائلٍ عليّاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ وَأَنْعِمْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَنَّا مَعَهُم بِمَنْكَ وَعَفْوِكَ وَكَرَمِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَذَلِّ الشِّرْكَ وَالْمَشْرِكِينَ، وَدَمِّرْ أَعْدَاءَ الدِّينِ، وَاجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، رِخَاءً، سَخَاءً، مُطْمَئِنًّا، وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ انصِرْ عِبَادَكَ الْمُؤَحِّدِينَ، اللَّهُمَّ انصِرْ عِبَادَكَ الْمُؤَحِّدِينَ، اللَّهُمَّ انصِرْ عِبَادَكَ الْمُؤَحِّدِينَ، اللَّهُمَّ انصِرْ عِبَادَكَ الْمُؤَحِّدِينَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (١٧١٤٢)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٤٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٩٣٧).

اللَّهُمَّ آمِنًا فِي دُورِنَا، وَأَصْلِحْ أُمَّتَنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا، اللَّهُمَّ وَفَّقْ جَمِيعَ وِلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ
لِلْعَمَلِ بِكِتَابِكَ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِكَ، وَاتَّبِعْ سُنَّةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَاجْعَلْهُمْ رَحْمَةً عَلَى شُعُوبِهِمْ
وَرَعَايَاهُمْ وَبِلَدَانِهِمْ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ.
اللَّهُمَّ وَفَّقِ الْأَحْيَاءَ وَيَسِّرْ لَهُمْ أُمُورَهُمْ، وَاغْفِرْ لِلْأَمْوَاتِ وَنُورْ لَهُمْ قُبُورَهُمْ.
اللَّهُمَّ تُبِّ عَلَى التَّائِبِينَ، وَاغْفِرْ ذُنُوبَ الْمُذْنِبِينَ، وَاقْضِ الدَّيْنَ عَنِ الْمَدِينِينَ، وَرُدِّ عَاصِينَا
وَغَاوِينَا وَضَالِّنَا وَجَاهِلِنَا إِلَيْكَ رَدًّا جَمِيلًا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فَاذْكُرُوا اللَّهَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ يَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوا عَلَىٰ نِعْمِهِ وَأَلَا يَزِدْكُمْ، ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿[العنكبوت: ٤٥]﴾.

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيِّ الْمَدَنِيِّ

— عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَمَشَائِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ —

فِي الثَّانِي مِنْ شَهْرِ رَجَبِ عَامِ ثَلَاثَةِ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ